

بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أَنَّ المصنّف رحمه الله بيّن فيه الأدلة على بطلان الشرك وبيان حال المدعون مِنْ دُونِ الله، وفي ذلك تقريرٌ للتوحيد بالبراهين القاطعة.

أشركون: استفهام إنكارٍ وتوبيخٍ عَلَى مَنْ يشرك في العبادة مَعَ الله.

ما لا يخلقُ شيئاً: أي مخلوقات لا تقدرُ على الخلقِ وليسَ فيها ما تستحقُّ به العبادة.

وهم يُخلِقون: أي وهؤلاء المعبودون مخلوقون محدثون. والمخلوق لا يكونُ شريكاً للخالق.

ولا يستطيعون لهم نصراً: أي وهؤلاء المعبودون لا يقدرّون على نصر عابديهم.

ولا أنفُسُهُم ينصرون: أي ولا يقدرّون على أَنْ يدفعوا عن أنفُسِهِمْ مَنْ أرادَ بهم ضرراً فكيف يدفعونه عَنْ غيرِهِمْ.

المعنى الإجماليُّ للآية: يوبخُ الله سبحانه وتعالى المشركين بأنهم يعبدون مَعَهُ معبودات لا تخلقُ شيئاً وليسَ فيها ما تستحقُّ العبادةَ بِهِ ولا تدفعُ

الضرَّ عَمَّنْ دَعَاها، بَلْ وَلَا تَدْفَعُهُ عَنْ أَنْفُسِهَا وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَتُهُمْ بَطَلَتْ دَعْوَتُهُمْ؛ لِأَنَّ المَخْلُوقَ لَا يَكُونُ شَرِيكاً لِلْخَالِقِ، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ شَرِيكاً لِلْقَادِرِ الَّذِي لَا يَعْجُزُهُ شَيْءٌ.

مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ:

- ١ - بطلانُ الشُّرِكِ مِنْ أُسَاسِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَلَّقَ عَلَى مَخْلُوقٍ عَاجِزٍ.
- ٢ - أَنَّ الخَالِقَ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ.
- ٣ - الاستدلالُ بتوحيدِ الربوبيةِ على توحيدِ الألوهيةِ.
- ٤ - مشروعيةُ مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ لِنَصْرِ الْحَقِّ وَقَمْعِ الْبَاطِلِ.

* * *

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ١٣ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

[فاطر: ١٣، ١٤].

والذين تدعون من دونه: أي الذين تدعونهم غير الله: من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها.

قطمير: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمر.
لا يسمعون دعاءكم: لأنهم أموات أو ملائكة مشغولون بما خلِقُوا لَهُ.

ما استجابوا لكم: لا يقدر على ما تطلبون منهم.
يكفرون بشرككم: يُنْكِرُونَهُ وَيَتَبَرَّوْنَ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِمْ مَعَ اللَّهِ.
ولا ينبئك: يخبرك بعواقب الأمور ومآلها.
مثل خبير: عالم بها وهو الله سبحانه وتعالى.

المعنى الإجمالي للآية: يخبر تعالى عن حال المدعين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو، وهي: ملك ما طُلب منه، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته. فمتى عُدِمَ شرط بطل أن يكون مدعواً فكيف إذا عُدِمَتْ كلها.

مناسبة الآية للباب: أن فيها البرهان القاطع على بطلان الشرك والرد على المشركين.

ما يُستفادُ مِنَ الآيَةِ :

- ١ - بطلانُ الشُّرْكِ بالدليلِ القاطعِ والبرهانِ الواضحِ .
- ٢ - بيانُ الشروطِ التي يجبُ توافُّرها في المدْعُو المُستَغاثِ بِهِ وهي :
 - أ - ملكُهُ لِمَا طُلِبَ منه .
 - ب - سماعُهُ لدعاءٍ من دَعَاه .
 - ج - القدرةُ على إجابَتِهِ .
- ٣ - أنَّ العقيدةَ مبناها على البرهانِ واليقينِ لا على الظنِّ والتخُرُّصِ والتقليدِ الأعمى .
- ٤ - إثباتُ علمِ اللهِ بعواقِبِ الأمورِ .

* * *

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ. فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١) [آل عمران: ١٢٨].

في الصحيح: أي الصحيحين.
شَجَّ: الشَّجَّةُ الجرحُ في الرأسِ والوجهِ خاصةً.
أُحُد: جبلٌ معروفٌ شمالي المدينةِ كانتَ عندهُ الوقعةُ المشهورةُ
فَنُسِبَتْ إِلَيْهِ.

الرَّبَاعِيَّةُ: هي السُّرُّ التي بعدَ الثَّنيَةِ. والإنسانُ له أربعُ رباعيات.
كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ... إلخ: أي كَيْفَ يَحْصُلُ لَهُمُ الْفَوْزُ وَالظَّفَرُ
وَالسَّعَادَةُ مَعَ فَعْلِهِمْ هَذَا بَنِيَّهِمْ.
مِنَ الْأَمْرِ: مِنَ الْحُكْمِ فِي الْعِبَادِ.

المعنى الإجماليُّ للحديث: يخبرُ أَنَسٌ عَمَّا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي
وَقْعَةِ أُحُدٍ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِصَابَةِ عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ مِنَ الْإِصَابَةِ فِي
مَوَاضِعٍ مِنْ جَسَدِهِ الشَّرِيفِ فَكَأَنَّهُ ﷺ لَحِقَهُ يَأْسٌ مِنْ فَلَاحِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ.
فَقِيلَ لَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].
أي: عَوَاقِبُ الْأُمُورِ وَحُكْمُ الْعِبَادِ بِيَدِ اللَّهِ فَامْضِ أَنْتَ لَشَأْنِكَ وَدُمَّ
عَلَى دَعْوَتِكَ.

مناسبة الحديث للباب: أَنَّ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى بَطْلَانِ الشَّرِكِ بِالْأَوْلِيَاءِ

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب المغازي باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ص ٧٧٢ ط بيت الأفكار الدولية.

والصالحين، لأنَّه إذا كان الرسول ﷺ لم يدفع عَنْ نَفْسِهِ الضَّرَّ، وليسَ لَهُ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أُولَى .

مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

١ - بطلانُ الشُّركِ بالأولياءِ والصالحين ؛ لأنَّه إذا كان النبي ﷺ لا يملكُ مِنْ الْأَمْرِ شَيْئاً فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أُولَى .

٢ - وقوعُ الأسقامِ والابتلاءِ بالأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ .

٣ - وجوبُ إخلاصِ العبادةِ لله، لأنَّه هو الذي له الأمرُ وحدهُ .

٤ - مشروعيةُ الصبرِ وتحملِ الأذى والضررِ في سبيلِ الدعوةِ إلى الله .

٥ - النهيُ عَنِ اليأسِ مِنْ رحمةِ الله ولو فعلَ الإنسانُ مَا فَعَلَ مِنَ المعاصي التي هي دونُ الشُّركِ .

* * *

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١) [آل عمران: ١٢٨].

وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ ابْنِ هِشَامٍ، فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٢) [آل عمران: ١٢٨].

ابْنُ عُمَرَ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صَحَابِيُّ جَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ الصَّحَابَةِ وَعُلَمَائِهِمْ مَاتَ سَنَةَ ٧٣ هـ.
وَفِيهِ: أَيُّ فِي الصَّحِيحِ وَالْمَرَادُ بِهِ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ.
أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ بَعْدَ مَا شَجَّ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أَحَدٍ.
اللَّهُمَّ الْعَنِ: أَيُّ اطْرُدْ وَأَبْعِدْ مِنْ رَحْمَتِكَ.
فُلَانًا وَفُلَانًا: مِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَالْحَارِثُ ابْنُ هِشَامٍ.
سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ: أَجَابَ اللَّهُ مَنْ حَمَدَهُ وَتَقَبَّلَهُ. لِأَنَّهُ قَدْ عُذِّي بِاللَّامِ.
الْحَمْدُ: ضِدُّ الذَّمِّ، وَيَكُونُ عَلَى مُحَاسِنِ الْمُحْمُودِ مَعَ الْمَحَبَّةِ لَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم (٤٠٦٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم (٤٠٧٠).

يدعو على صفوان... إلخ: لأنَّهم رؤوسُ المشركين يومَ أُحُدٍ، وَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَأَسْلَمُوا وَحَسَنَ إِسْلَامُهُمْ.

المعنى الإجماليُّ للحديث: يخبرُ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضي اللهُ عنهما أنه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يدعو في الصلاة على أشخاصٍ معينين من الكفارِ أذوه يومَ أُحُدٍ فعاتبَهُ اللهُ بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وتابَ اللهُ عليهم، فأمنوا باللهِ ورسوله.

مناسبةُ الحديثِ للباب: أنَّ فيه بيانَ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يقدرْ أنْ يدفعَ أذىَ المشركين عن نفسه ولا عن أصحابه، بل لجأَ إلى ربِّه القادرِ المالكِ، مما يدلُّ على بطلانِ ما يعتقده عبَادُ القبورِ في الأولياءِ والصالحين.

ما يُستفادُ من الحديث:

١ - بطلانُ التعلُّقِ بالأولياءِ والصالحين لطلبِ قضاءِ الحاجاتِ وتفريجِ الكرباتِ.

٢ - جوازُ الدعاءِ على المشركين في الصلاةِ.

٣ - دليلٌ على أنَّ تسميةَ الشخصِ المدعو له أو عليه لا يضرُّ الصلاةَ.

٤ - التصريحُ بأنَّ الإمامَ يجمعُ بينَ التسميعِ والتحميدِ.

* * *

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .
فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ^(١) .

أَبُو هُرَيْرَةَ : قِيلَ : الصَّحِيحُ أَنَّ اسْمَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَخْرِ ، دُوسِيٌّ مِنْ فَضَلَاءِ الصَّحَابَةِ وَحَقَّاطِهِمْ وَعِلْمَائِهِمْ . رَوَى أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَةِ آلَافٍ حَدِيثٍ ، تَوَفَّى سَنَةَ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانٍ أَوْ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ .
وَفِيهِ : أَيِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ .
قَامَ : أَيِ صَعَدَ عَلَى الصَّفَا .
عَشِيرَتَكَ : عَشِيرَةُ الرَّجُلِ هُمْ بَنُو أَبِيهِ الْأَدْنُونَ ، أَوْ قَبِيلَتَهُ .
الْأَقْرَبِينَ : أَيِ الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبِ مِنْهُمْ .
يَا مَعْشَرَ : الْمَعْشَرُ : الْجَمَاعَةُ :
أَوْ كَلِمَةٌ : بِنَصْبٍ (كَلِمَةٌ) عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلِهِ . أَيِ : أَوْ قَالَ كَلِمَةً نَحْوَهَا شَكٌّ مِنَ الرَّاوي .
اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ : أَيِ خَلَّصُوهَا مِنَ الْعَذَابِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى شَرَفِ النَّسَبِ .

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٥٣) ومسلم برقم (٢٠٦) والترمذي برقم (٣١٨٤) .

لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ : لَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ ، رَفَعُ لِمَا قَدْ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً بِشَفَاعَتِهِ .

عباسٌ ، وصفيةٌ ، وفاطمةٌ : بالرفع على البناء ، ويجوزُ النصبُ بالنداء . وابنٌ ، وعمَةٌ ، وبنتٌ : بالنصبِ لَا غَيْرَ بدلاً مِنَ المُنَادِي أو عطفَ بيانٍ .

سَلِّينِي مِنْ مَّالِي : لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقْدَرُ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ .

المعنى الإجماليُّ للحديثِ : يخبرُ أبو هريرة - رضي الله عنه - عمَّا صنعَ رسولُ الله ﷺ حينما أمره الله في كتابه الكريم أن ينذرَ قِرابته ؛ أَنَّهُ قَامَ مِمثلاً أَمْرَ رَبِّهِ ، فنَادَى قريشاً بِبُطُونِهَا ونَادَى عَمَّهُ وعمَّتَهُ وبنتَهُ ، فأَنذَرَهُمْ نَذَارَةً خَاصَةً وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَخْلُصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بتوحيدهِ وطاعتهِ وَبَلَّغَهُمْ أَنَّهُ لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئاً إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا فمَجَرَّدُ قُرْبِهِمْ مِنْهُ غَيْرُ نَافِعٍ لَهُمْ بَدُونِ إِيمَانٍ .

مناسبةُ الحديثِ للبابِ : أَنَّ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ مِنَ الرَّسُولِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى إِلَّا مَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا . وَأَمَّا مَا لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ ، ففيه الرُّدُّ عَلَى عُبَادِ الْقُبُورِ الَّذِينَ يَسْتَغِيثُونَ بِالْأَمْوَاتِ لِتَفْرِيجِ الْكَرْبَاتِ وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ .
مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

- ١ - الرُّدُّ عَلَى عُبَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ بِالْمَخْلُوقِينَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِم الَّتِي لَا يَقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ .
- ٢ - أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا مَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ .
- ٣ - مَسَارَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ رَبِّهِ وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ .

- ٤ - أَنَّهُ لَا يَنْجِي مَنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لَا الْاعْتِمَادُ عَلَى مَجْرَدِ الْإِنْتِسَابِ لِلْأَشْخَاصِ .
- ٥ - أَنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلُ طَاعَتِهِ وَمَتَابَعَتِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ وَغَيْرِهِمْ .
- ٦ - أَنَّ مَجْرَدَ الْقَرَابَةِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَنْفَعُ بَدُونِ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ وَعَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ .

* * *

باب

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ط
قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبا: ٢٣].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد : أنَّ فيه بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله فإذا كان حالهم مع الله ما ذكر من هيبته منه وخشيتهم له فكيف يُدعون مع الله فغيرهم من باب أولى . ففي ذلك ردُّ على جميع المشركين الذين يدعون مع الله من لا يُداني الملائكة .
فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ : أزيل الفزع عن قلوب الملائكة من الغشية التي تصيبهم عند سماع كلام الله بالوحي إلى جبريل .
قالوا : أي قال بعضهم لبعض استبشاراً : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ط ؟ [سبا: ٢٣].

قالوا الحقَّ : أي : قال الله الحقَّ .
وهو العليُّ : الذي له علوُّ القدرِ وعلوُّ القهرِ وعلوُّ الذاتِ .
الكبيرُ : أي الذي لا أكبر ولا أعظم منه تبارك وتعالى .
المعنى الإجماليُّ للآية : يخبر الله سبحانه عن الملائكة أنها إذا سمعت الوحي من الله إلى جبريل فزعت عند ذلك تعظيماً وهيبَةً وأرعدت حتى يصيبها مثل الغشيِّ ، فإذا أزيل الفزع من قلوبهم أخذوا يتساءلون فيقولون : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ط ؟ فيقولون : قال الحق وهو العليُّ

فوق كُلِّ شيء، الَّذِي لا أَكْبَرُ منه ولا أعظمُ.
ما يُستفادُ مِنَ الآيَةِ:

- ١ - الرَّدُّ على جميع فرق المشركين الذين يعبدونَ مَعَ اللَّهِ من لا يُداني الملائكة ولا يساويهم في صفةٍ مِنْ صفاتهم.
- ٢ - إثباتُ الكلامِ لِلَّهِ سبحانه على ما يليقُ بِجَلالِهِ.
- ٣ - أَنَّ كلامَ اللَّهِ سبحانه وتعالى غيرُ مخلوقٍ، لأنَّهم يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟﴾ لم يقولوا: مَاذَا خَلَقَ رَبُّكُمْ؟
- ٤ - إثباتُ العُلُوِّ لِلَّهِ سبحانه فوق مخلوقاته.
- ٥ - إثباتُ عظمةِ اللَّهِ.

* * *

في الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ. حَتَّى إِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ» وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. وَصَفَهُ سُفْيَانٌ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مَائَةً كَذِبَةٍ. فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا. فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»^(١).

سُفْيَانُ: هُوَ ابْنُ عَيْنَةَ بْنِ مَيْمُونِ الْهَلَالِيُّ ثِقَةٌ حَافِظٌ حَجَّةٌ مِنْ كِبَارِ الْأَثَمَةِ، مَاتَ سَنَةَ ١٩٨ هـ.

في الصحيح: أي في صحيح البخاري.

إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ: أي إِذَا تَكَلَّمَ بِهِ.

خَضَعَانًا: بفتح حاءين من الخضوع. وروى بضم أوله وسكون ثانيه

أي خاضعين.

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠١).

لِقَوْلِهِ : أَي لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى .
 كَأَنَّهُ : أَي الصَّوْتُ الْمَسْمُوعَ .
 صَفْوَانٌ : هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ .
 يَنْفِذُهُمْ ذَلِكَ : أَي يَخْلُصُ هَذَا الْقَوْلُ وَيَمْضِي فِي الْمَلَائِكَةِ .
 فَيَسْمَعُهَا : أَي الْكَلِمَةَ الَّتِي قَضَاها اللَّهُ .
 مُسْتَرْقُ السَّمْعِ : الْمُخْتَطَفُ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ الشَّيَاطِينِ .
 وَصَفَهُ : أَي وَصَفَ رُكُوبَ الشَّيَاطِينِ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ حَتَّى
 يَصْلُوا إِلَى حَيْثُ يَسْمَعُونَ تَحَدَّثَ الْمَلَائِكَةُ بِالْأَمْرِ يَقْضِيهِ اللَّهُ .
 فَحَرَّقَهَا : أَمَالَهَا .
 وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ : أَي فَرَّقَ بَيْنَهَا .
 السَّاحِرُ : الَّذِي يَتَعَاطَى السَّحَرَ : وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا خَفِيَ وَلَطَفَ سَبَبُهُ
 مِنْ عَمَلِ الْعُقَدِ وَالرُّقَى وَغَيْرِهَا .
 وَالكَاهِنُ : هُوَ الَّذِي يَخْبِرُ عَنِ الْكَائِنَاتِ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ وَيَدَّعِي
 مَعْرِفَةَ الْأَسْرَارِ .
 أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ : أَي أَدْرَكَ الْمُسْتَرْقَ الشَّهَابُ : وَهُوَ الَّذِي يُرْمَى بِهِ
 قَبْلَ إِقَائِهَا فِي حَرِّقِهِ .
 فَيَكْذِبُ : أَي السَّاحِرَ أَوِ الْكَاهِنَ .
 مَعَهَا : أَي الْكَلِمَةَ الَّتِي أَلْقَاهَا .
 الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ لِلْحَدِيثِ : يَخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ تَعْظِيمِ الْمَلَائِكَةِ
 لِكَلَامِ اللَّهِ وَمَا يَعْتَرِيهِمْ مِنَ الْخَوْفِ وَتَسَاوُلِهِمْ عَمَّا قَالَ رَبُّهُمْ وَاجَابَةُ
 بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ . وَمَا تَعَمَّلُهُ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ يَخْتَطِفُونَ كَلَامَ

الملائكة في ذلك لتلقيه إلى السحرة والكهان من الناس وما تَلَاقِيهِ الشياطين من الرَّمي بالشهب حينئذٍ، وأنَّه قد يتمكَّن الشيطان من إيصال الكلمة المسموعة من الملائكة إلى الساحر أو الكاهن - لحكمة يعلمها الله وإلاَّ فهو سبحانه لا يفوته شيءٌ - فيزاد مع تلك الكلمة من قِبَل الشيطان أو الآدميِّ تسعٌ وتسعون كذبةً وتُدَاعُ كُلُّها في الناس فيصدَّقونها كُلُّها بسبب تلك الكلمة المسموعة .

مناسبة الحديث للباب : أنَّ فيه الردَّ على المشركين . فإنه إذا كان هذا حال الملائكة عند سماع كلام الله مع ما أعطاهم الله من القوة عَلمَ أنه لا يجوزُ صرفُ شيءٍ من العبادة لهم فكيف بمن دونهم .
ما يُستفاد من الحديث :

- ١ - الردُّ على المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والصَّالحين .
- ٢ - تعظيمُ الله سبحانه وأنَّه المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له .
- ٣ - إثباتُ علوِّ الله على خلقه وإثباتُ تكليمه بكلام يُسمعُ .
- ٤ - إبطالُ السحر والكهانة وإن صدَّق الكاهنُ والساحرُ في بعض الأحيان .
- ٥ - أنَّ العبرة بالغالب الكثير لا بالنادر القليل .

وَعَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتْ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً » أَوْ قَالَ : « رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَعِقُوا أَوْ خَرُّوا سُجَّدًا فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ . ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ كُلِّهَا مَرًّا بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ : قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ . فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » ^(١) .

النَّوَاسُ : هو النَّوَاسُ بْنُ سَمْعَانَ - بكسر السين - ابنُ خَالِدِ الْكَلَابِيِّ صَحَابِيٍّ جَلِيلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الْوَحْيُ : أي : كَلَامُ اللَّهِ الْمَنْزُولُ عَلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ .

أَخَذَتْ السَّمَوَاتُ : أي أَصَابَ السَّمَوَاتِ .

رَجْفَةٌ : بِالرَّفْعِ فَاعِلٌ أَخَذَتْ . أي ارْتَجَفَتْ وَاضْطَرَبَتْ .

خَوْفًا مِنَ اللَّهِ : لَأَنَّهَا تَخَافُ مِنَ اللَّهِ بِمَا جُعِلَ فِيهَا مِنَ الْإِحْسَاسِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ .

صَعِقُوا : الصَّعَقُ الْغَشْيُ .

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد رقم (٢٠٦) وابن أبي عاصم في السنة رقم (٥١٥) والآجري في الشريعة .

خَرُّوا: خَرَّ: سَقَطَ مِنْ أَعْلَى، والمرادُ هنا انحطوا بالسجودِ.
أول: بالفتح خبرٌ يكونُ.

إلى حيثُ أَمَرَهُ اللهُ: مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

المعنى الإجماليُّ للحديث: يخبرُ نبيُّ اللهِ ﷺ عَنْ عَظَمَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا تَكَلَّمَ بِمَا شَاءَ مِنْ وَحِيهِ، فَإِنَّهُ يَصِيبُ السَّمَوَاتِ ارْتِجَافٌ وَحَرَكَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ خَوْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَعْرِفَتِهَا بِعَظَمَةِ اللهِ، فَإِذَا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ غُشِيَ عَلَيْهِمْ وَانْحَطُّوا بِالسَّجُودِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ وَخَوْفًا مِنْهُ، ثُمَّ يَكُونُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ السَّفِيرُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رَسَلِهِ، فَيَكَلِّمُهُ اللهُ بِمَا شَاءَ مِنْ أَمْرِهِ، ثُمَّ يَمُرُّ جَبْرِيلُ عَلَى مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ فَيَسْأَلُونَهُ عَمَّا قَالَ اللهُ؟ فَيَجِيبُهُمْ بِقَوْلِهِ: (قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) فَيَقُولُونَ مِثْلَ مَا قَالَ، ثُمَّ يَمْضِي جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ فَيُبَلِّغُهُ إِلَى مَنْ أَمَرَهُ اللهُ بِتَبْلِيغِهِ إِيَّاهُ.

مناسبة الحديث للباب: أَنَّ فِيهِ مَا فِي النُّصُوصِ قَبْلَهُ مِنْ بَيَانِ عَظَمَةِ اللهِ وَخَوْفِ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَوَاتِ مِنْهُ، فَفِيهِ الرُّدُّ عَلَى مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ.
مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ:

- ١ - الرُّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَعَ اللهِ آلِهَةً مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.
- ٢ - بَيَانُ عَظَمَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ.
- ٣ - إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ بِمَا يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ.
- ٤ - إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ.
- ٥ - فَضْلُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.